## جذور اللسانيات النفسية المعاصرة

إن اللسانيات النفسية المعاصرة ميدان متداخل التخصصات يجمع بين تخصصي اللسانيات وعلم النفس العرفاني التجريبي. ومن البديهي أن هذا الائتلاف لن يكون ناجحا إلا بقدر ما يكون في الميدانين الفرعيين من رؤى متوافقة إزاء اللغة. ولقد كان هذا التوافق موجودا فعلا حينما نشأت اللسانيات النفسية نشأتها الأولى، مثلما أنه موجود حاليا. ولكن المثير للاهتمام هو أن تلك الرؤى قد مرت بتغير هائل خلال العقود القليلة الماضية.

لقد بدأت نشأة مجال اللسانيات النفسية في صيف عام 1951م، في اجتماع المجلس بحوث العلوم الاجتماعية في جامعة كورنيل بنيويورك، إذ تم تشكيل لجنة للسانيات وعلم النفس برئاسة "تشارلز أوسغوود" (Kess, 1992). ثم عقدت بعد ذلك حلقة دراسية في جامعة إنديانا بالتعاون مع المجمع اللساني، في صيف عام 1953م. وقد شكلت هذه الحلقة الأساس لأول كتاب يحمل مصطلح اللسانيات النفسية في عنوانه، وهو : Psycholinguistics: A Survey of Theory and Research Problems اللسانيات النفسية: استعراض للمسائل النظرية والبحثية (Osgood & Sebook (1954).

وقد كان اللسانيون آنذاك يركزون على التحليل التصنيفي للغات، وهو ما يعني أن غايتهم الأساسية قد كانت تصنيف الجوانب القابلة للملاحظة من اللغة. فكانت منهجية التحليل المتبعة لدى لساني تلك الحقبة حينما يقومون بمقاربة لغة جديدة هي أن يستمعوا إلى متكلمي تلك اللغة، ويكتشفوا ما فيها من وحدات صواتية، ثم يقوموا بتصنيفها ضمن فصائل من مستويات أعلى، وقد كانت هذه المنهجية متوافقة توافقا تاما مع الرؤية التي كان يتبناها علماء النفس حيال اللغة، وهي أن الكلام ليس إلا نوعا من أنواع ما يبديه البشر من سلوك حركي. فقد كان علم النفس السلوكي في ذلك الوقت يعتبر أن ميدان علم النفس هو السلوك (سواء عند البشر أو عند الحيوانات) وليس العمليات العقلية أيا كان نوعها، وكانوا يعتقدون أن السلوكيات كلها يمكن أن تفسر باعتبارها سلاسل متقارنة (أي مترابطة) من سلوكيات أصغر منها. ولذا، فقد كان الكلام يعد بمثابة وحدات سلوكية مكونة من أصوات تأتلف في كلمات، تترابط بعد ذلك لتشكل المركبات، وهلم جرا. وأما اكتساب اللغة لدى الطفل فكان ينظر إليه باعتباره عملية تقوم على تنامي سلوكيات الكلام المترابطة بشكل صائب عن طريق مكافأة ما هو مرغوب فيه. وعدم مكافأة ما هو مرغوب عنه، من تلك السلوكيات وكان السلوكيون يعتقدون أن نظام التعلم هذا، المعروف بالإشراط مشترك بين جميع الكائنات الحية، وأن الكائنات الحية كلها تتعلم كل شيء بالطريقة نفسها. فكل تعلم يتكون من اكتساب سلوكيات روتينية، وكل السلوكيات الروتينية تكتب تبعاً لمبادئ التعلم نفسها، ومن ثم فقد كان الجامع المشترك الذي يربط بين اللسانيات وعلم النفس في منتصف القرن العشرين هو النظرة التي ترى أن كل ما هو مثير للاهتمام حيال اللغة قابل للملاحظة المباشرة في إشارة الكلام الفيزيائية. ولقد تم الجزم بعد ذلك أن هذه الرؤية حيال اللغة كانت خاطئة من أساسها، وهي رؤية تتعارض تعارضا تاما مع الرؤية المعروضة في هذا الكتاب.

ولقد وجد بطبيعة الحال بعض اللسانيين وعلماء النفس الذين كانوا يرون بعض المصاعب في تلك الرؤية التقليدية. فقد كتب اللساني الشهير "إدوارد سابير" ورقة عنوانها the psychological reality of phonems الواقعية النفسية للصواتم»، مشيرا إلى أنه ينبغي تناول التمثيل العقلي للغة بدلا من التركيز حصرًا على تمثيلها الفيزيائي (Sapir (1949). وقام عالم النفس "كارل لاشلي" بكتابة ورقة تعد تقليدية الآن بعنوان: the problem of serial / order of behavior "مشكلة الترتيب التسلسلي في السلوك»، ليشكك في القدرة التفسيرية للتسلسل

التقارني (Lashley, 1951). ولكن الرؤية السائدة لدى اللسانيين وعلماء النفس قد كانت آنذاك أن اللغة نظام من سلوكيات متفاصلة يمكن أن تلاحظ، وتصنف، وتفهم لدى الفرد باعتبارها سلاسل من السلوكيات المترابطة التي تنشأ بالإشراط في مرحلة الطفولة. ومبادئ الإشراط هذه كانت تعد المبادئ العامة للتعلم لدى جميع الكائنات الحية.

ولقد تم التصدي لهذه الرؤية منذ أواخر الخمسينيات على يد البروفيسور "نعوم تشومسكي"، في معهد ماساشوستس للتقنية، إذ قام بطرح طريقة جديدة تماما في النظر إلى اللغة البشرية، وهي مقاربة قام اللسانيون وعلماء النفس المعاصرون، بالإضافة إلى الباحثين في المجالات الأخرى ذات العلاقة بتبنيها. وهي الرؤية التي يتبناها هذا الكتاب بشكل أساسي لقد ذكر "تشومسكي" (Chomsky 1959) أن الكلام لا يمكن أن يكون موضوع دراسة بالنسبة إلى من يريدون فهم اللغة البشرية، بل ما ينبغي أن يكون موضوع الدراسة هو مجموعة القواعد - الموجودة في الذهن. والذهن في الحقيقة مصطلح مجرد يشار به إلى الدماغ (- التي تقوم بإنشاء الجمل وتكمن وراء الكلام القابل للملاحظة إن هذه القواعد هي ما يشكل النظام النحوي، وهي غير قابلة للملاحظة بالطريقة التي يكون بها الكلام قابلا للملاحظة (Chomsky. (1975). ومع ذلك، فإنه من الممكن اختبار الفرضيات حول خصائص النظام النحوي، ويمكن بذلك اكتشاف مجموعة القواعد التي تشكل معرفة البشر بلغتهم. فالأطفال يكتسبون لغتهم بلا جهد يذكر كما هو واقع، ليس بسبب مبادئ عامة للتعلم تنطبق على جميع الكائنات كما يدعي علماء النفس السلوكيون)، بل لأن هذا النظام الداخلي من القواعد متأصل في النوع البشري من الناحية الأحيائية (1975 .(Chomsky,

ولقد كان واضحا أن التصور التشومسكي حيال اللغة يتنافى تماما مع الرؤية السلوكية. وقد تمكن على الفور عدد قليل من علماء النفس، ومن ضمنهم "جورج ميلر" (Miller) (1965)، من إدراك الآثار المترتبة على أفكار "تشومسكي" بالنسبة إلى الدراسة النفسية للغة واكتسابها. فكان علماء النفس هؤلاء هم المسؤولون بشكل أساسي عن استجلاب هذه الأفكار إلى منطقة اهتمام الجماعة العلمية للمتخصصين بعلم النفس. وقد قام اللساني "سول سابورتا"، في عام 1961م، بنشر كتاب عنوانه اللسانيات النفسية قراءات مختارة ( psycholinguistics: A book of readings )، دعمته لجنة اللسانيات وعلم النفس في مجلس بحوث العلوم الاجتماعية بعد ثماني سنوات فقط من صدور الكتاب الأول). وقد تضمن الكتاب (Sapora 1961) أوراقا لتشومسكي وميلر، بالإضافة إلى عدد من اللسانيين وعلماء النفس التقليديين. وقد أشعل هذا الكتاب معركة فكرية استعرت لأكثر من عقد من الزمان. وتم التسليم في النهاية برؤية مختلفة تماما عن اللغة، تخالف الرؤية التي كانت توحد بين اللسانيات وعلم النفس في منتصف القرن العشرين فأصبح الحقلان معا في مطلع القرن الواحد والعشرين يسلمان تسليما سائدا بالرؤية التشومسكية عن اللغة، باعتبارها نظاما مجرداً ممثلا في الذهن أو الدماغ، بشكل محصور في النوع البشري، فينمو بنمو الأطفال، ويكمن خلف الكلام الفيزيائي، على الرغم من أنه لا يمت إليه بصلة إلا بشكل غير مباشر. وهذا لا يعني أن الخلافات حيال الطريقة المثلى لتوصيف المعرفة اللغوية، ودراسة استخدامها لدى الكبار واكتسابها لدى الأطفال قد انتهت داخل ميداني اللسانيات وعلم النفس، فالمجالات العلمية المتعافية ستظل دوما مشتملة على الاختلاف، ولكنه اختلاف قائم بين أناس يحملون الرؤية الأساسية نفسها حيال اللغة باعتبارها موضوعا للدراسة.

**إيفا فيرنانديز وهيلين كيرنز**

**أسس اللسانيات النفسية، تر: عقيل بن حامد الزماي الشمري، ص: 41-44**